الإمام الذهبي
وجهوده في علم التأريخ

٦٧٣ - ٧٤٨هـ

إعداد

د- عبد العزيز بن صالح الغامدي

قسم التاريخ – كلية الدعوة وأصول الدين
الجامعة الإسلامية – المدينة المنورة

من ٣٢٦٧ إلى ٣٢٨٦

المقدمة

حث الله عز وجل عباده على أخذ العظة والعبرة مما حصل من الأحداث للأمم السابقة ، وحث أتباع النبي (صلى الله عليه وسلم) خاصة وبقية الخلق عامة على السير في الأرض والتفكير في عاقبة السابقين فقال تعالى : { لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفتري ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون } (١) .

وقال تبارك وتعالى : { أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم } (٢) ، وقد اهتم طائفة من العلماء المسلمين بالتاريخ فاعتنوا بأخبار من سبقهم من الأمم ودونوا أحداث عصرهم ولم تفتهم في الغالب شاذة ولا فاذة إلا وأشاروا إليها (٣) .

وزاد ت عنايتهم بعلم التاريخ لارتباطه بدينهم الحنيف ، فمن خلال اهتمامهم بتدوين التاريخ كانوا في حقيقة الأمر يسجلون مراحل انتشار الدين الإسلامي الحنيف ويسطرون مواقف الدعوة إلى الله والجهاد في سبيل الله والصبر والتضحية التي قدمها الرسول المصطفى (صلى الله عليه وسلم) بمؤازرة من الصحابة الأخيار من المهاجرين وأنصار .

وببعثة خاتم الأنبياء شعر المسلمون أن الإسلام غير مسيرة الإنسانية من الناحية الدينية ، وهذا التحول يستحق التسجيل والتدوين لفهم دقائقه ومجريات أحداثه وأخباره ، فكانت تجارب الأمة الإسلامية جديرة بأن تعرف وتسجل وتدون لتنقل لغيرهم ولتقارن مع تجارب وأخبار الأمم الأخرى .

ولما ظهرت الدولة الإسلامية غيرت مسيرة الحياة الإنسانية من الناحية الدينية والسياسية والتاريخية فكانت هذه الدولة المسلمة وأخبارها مفاجأة لغيرها من الدول المجاورة من روم

وفرس وغيرهم ، وحظيت أخبارها بالوصف والتحليل والتعليل ممن اهتم بتدوين مراحل تاريخها العظيمة من علمائها المسلمين (٤) .

عند التأمل في جهود العلماء المسلمين نجد في مقدمة هؤلاء المؤرخين الأفذاذ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي الذي أتناول جوانب من حياته وجهوده في علم التاريخ وبعض مؤلفاته وذلك من خلال العناصر التالية :

١ – الولادة والنسب والأسرة :

ولد مؤرخ الإسلام الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز بن عبد الله الذهبي في شهر ربيع الآخر سنة ٦٧٣هـ .. وكان من أسرة تركمانية الأصل سكنت مدينة ميافارقين من أشهر مدن ديار بكر (٥) .

عرف محمد بابن الذهبي نسبة إلى صنعة أبيه وعمل في الذهب المدقوق .. وقد عاش مرحلة الطفولة في ظل عائلة متدينة عرفت بطلب العلم والأخذ عن العلماء فحظي أبناؤهم بنصيب وافر من العلوم المختلفة ، وتولى تأديب وتعليم هذا الغلام علاء الدين علي بن محمد الحلبي ، وكان من أحسن الناس خطاً وأخبرهم بتعليم الصبيان ، وبقي يتلقى التوجيه والتعليم لديه مدة أربعة أعوام تقريباً (٦) ، ورافق هذا التوجيه متابعة متواصلة لمحمد بن الذهبي من جده عثمان الذي كان يحاول تعويد حفيده على النطق الصحيح وتقويم اللسان .

وبعد هذه المرحلة اتجه الذهبي إلى شيخه مسعود بن عبد الله الصالحي فأخذ عنه جميع القرءان وقرأ عليه قريبا من أربعين ختمة ، ثم انتقل محمد بن الذهبي إلى مجالس الشيوخ فبدأ يسمع كلام بعضهم أثناء قدومهم إلى دمشق وإقامتهم بها وهذا فيه دلالة على حبه للعلم والعلماء منذ الصغر (٧) .

وزاد حرص الذهبي واعتناؤه بطلب العلم فحينما بلغ الثانية عشرة من عمره توجهت عنايته إلى ناحيتين رئيستين :

أ- علم القراءات :

حيث اهتم الذهبي رحمه الله بقراءة القرآن الكريم والعناية بدارسة علم القراءات وأخذ عن شيوخ القراء في دمشق ، وأصبح على معرفة جيدة بالقراءات وأصولها ومسائلها وهو لما يزل فتى لم يتعد العشرين من عمره وتميز الذهبي في علم القراءات وبرع فيها براعة جعلت شيخه شمس الدين محمد بن عبد العزيز الدمياطي ، يتنازل له عن حلقته للإقراء بالجامع الأموي في أواخر سنة ٦٩٢هـ (٨) .

ب – علم الحديث :

أما علم الحديث فقد اهتم الذهبي بسماع الحديث واعتنى به عناية فائقة وانطلق في هذا العلم حتى طغى على كل تفكيره واستغرق كل حياته بعد ذلك فسمع مالا يحصى كثرة من الكتب والأجزاء ولقي الشيوخ و الشيخات ، وأصيب بالشره في سماع الحديث وقراءته ورافق طيلة حياته (٩) .

٢- مراحل طلب العلو ورحلاته العلمية :

كان الإمام الذهبي رحمه الله يتطلع إلى طلب العلم من العلماء خارج بلدته دمشق وذلك لإدراكه للأهمية البالغة لتحصيل علو الإسناد وقدم السماع ولقاء الحفاظ والمذاكرة لهم والاستفادة منهم ، وكان رحمه الله يتحين الفرص لذلك إلا أن والده لم يشجعه على الرحلة بل كان يمنعه من السفر في بعض الأحيان وقد أشار إلى تلك الرغبة وموقف والده أثناء ترجمته لبعض علماء القراءات والحديث .

ولعل الذهبي رحمه الله كان وحيد أبيه أو كان هو البارز بين أبنائه بحيث كان يخاف عليه هذا الخوف كله ، فضلا عن صغر سنه في هذه المرحلة من حياته (١٠).

ولم تستمر ممانعة والد الحافظ الذهبي رحمه الله له من السفر طويلا فقد سمح له بالرحلة حينما بلغ العشرين من عمره وأذن له برحلات قصيرة لا يقيم في كل منها أكثر من أربعة أشهر ، وحلف لوالده أنه لا يتجاوز هذه المدة فتقيد بها خوفا من عقوق الوالد من جهة

ولأنه من جهة أخرى كان يرافق بعض طلبة العلم ممن يعتمد على صحبتهم له في تلك الرحلة (١١) .

وتشير المصادر إلى رحلات الذهبي رحمه الله عرضا ولا تقدم عنها معلومات كثيرة ولكن كانت أهم رحلاته العلمية إلى كل من :

أ – رحلته إلى البلاد الشامية :

فقد توجه في أول رحلة علمية له إلى بعلبك في سنة ٦٩٣هـ وأخذ عن علماء القراءات من أمثال الموفق النصيبي ت ٦٩٥هـ وأكثر في الأخذ من العالم المحدث تاج الدين أبي محمد البعلبكي ، وتوجه مرة ثانية إلى بعلبك في سنة ٧٠٧هـ وتنقل في رحلاته العلمية في مدن عديدة من البلاد الشامية يأخذ عن العلماء الثقات فسمع من الشيوخ في حمص وحماة وطرابلس ونابلس والقدس وغيرها (١٢) .

ب – رحلته إلى البلاد المصرية :

كانت رحلة الذهبي إلى البلاد المصرية من أبرز رحلاته العلمية المبكرة ويحددها بعض الباحثين بأنها كانت بعد سنة ٦٩٥هـ وأنهى هذه الرحلة وعاد إلى دمشق في أوائل سنة ٦٩٦هـ وحرص محمد الذهبي رحمه الله أثناء طلبه للعلم بمصر على الأخذ من جماعة كبيرة من علماء الحديث من أمثال أحمد بن محمد بن عبد الله المعروف بابن الظاهري (١٣) ، ت ٦٩٦هـ وأحمد بن إسحاق الأبرقوهي (١٤) ، ت ٧٠١هـ ، والقاضي محمد بن علي المعروف بابن دقيق العيد (١٥) ت ٧٠٢هـ ، وعبد المؤمن بن خلف الدمياطي (١٦) ت ٧٠٥هـ وغيرهم .

وفي أثناء وجود الذهبي بالبلاد المصرية ارتحل إلى الإسكندرية وسمع من الشيخ يوسف بن الحسن القابسي الاسكندراني ت ٧١١هـ ، وقرأ على الشيخ صدر الدين عبد الرحمن بن عبد الحليم المعروف بسحنون ت ٦٩٥هـ(١٧) .

وحرص الذهبي أثناء إقامته بالإسكندرية على الأخذ من أسند أهلها في القراءات يحيى بن أحمد بن الصواف الاسكندراني ت ٧٠٥هـ ، وأخذ عن جملة من علمائها المتميزين مثل علي بن أحمد الواسطي الاسكندراني ت ٧٠٤هـ ، وكان شيخ دار الحديث النبيهية بالإسكندرية ولقد كانت هذه الرحلة قصيرة زمنيا ولذلك كان الذهبي رحمه الله يجهد نفسه في قراءة أكبر كمية ممكنة على شيوخ وعلماء تلك البلاد وإلى ذلك يشير بقوله عن نفسه أنه قرأ جميع سيرة ابن هشام على الأبرقوهي في ستة أيام فقط .

ج – رحلته إلى بلاد الحرمين الشريفين :

توجه الذهبي إلى الديار المقدسة في سنة ٦٩٨هـ قاصدا للحج ورافقه في هذه الرحلة جماعة من أصحابه وشيوخه ، من أمثال العالم المسند
محمد بن عبد المحسن المعروف بابن الخراط الحنبلي ت ٧٢٨هـ ، وعن هذا الرحلة يذكر الذهبي أنه سمع منه أثناء الطريق إلى مكة وسمع أثناء تنقله لأداء شعائر الحج من العلماء في كل من مكة المكرمة وعرفة ومنى ثم سمع بالمدينة المنورة من مجموعة من الشيوخ (١٨) .

٣ – مناصبه العلمية :

بعد هذا الجهد المتواصل في طلب العلم دون كلل أو ملل بدأت مرحلة جديدة من حياة الإمام الذهبي وفيها تولى الخطابة بأحد جوامع (كفر بطنا) بغوطة دمشق وذلك في سنة ٧٠٣هـ . وتولى بعد ذلك بسنوات التدريس بدار الحديث بتربة أم الصالح (١٩)
(واقفها الصالح إسماعيل الملك سيف الدين أبي بكر العادل) وكانت هذه الدار من

كبريات دور الحديث بدمشق أنذاك ، وتولى أيضا التدريس بغيرها من دور الحديث ومنها :

((دار الحديث الظاهرية (الظاهر بيبرس) (٢٠) ، دار الحديث النفيسية ، وتولى مشيخة الحديث بدار الحديث والقراءات التنكزية ، ودار الحديث الفاضلية بدمشق)) .

وهكذا تولى الذهبي التدريس والمشيخة في كبريات دور الحديث بدمشق في أيامه ، وما ذلك إلا دليلا على ما وصل إليه من علم واسع ومعرفة بهذا العلم الشريف وعند وفاته كان يتولى مشيخة الحديث في خمس مدراس ، فضلا عن نشاطه في التعليم و التأليف الذي بدأه بعد عودته من رحلاته العلمية (٢١) .

وبعد هذه الرحلات العلمية واصل الذهبي رحمه الله جهوده في الدراسة والسماع لا يشغله عنهما شاغل ، وكانت دراسته وسماعاته متنوعة لم تقتصر على علم بعينه ، فعني بدراسة النحو على شيخه موفق الدين محمد أبي لعلام النصيبي البعلبكي (ت ٦٩٥هـ) ، ودرس على شيخ اللغة العربية وإمام أهل الأدب بمصر في عصره الشيخ محمد بن إبراهيم بن النحاس (٢٢) ت ٦٩٨هـ . وسمع من غيرهما لعدد كبير من علماء الشعر واللغة والأدب .

وتوجهت عنايته الرئيسة في السماع لعلماء الحديث فسمع مئات الكتب والأجزاء الحديثية طيلة حياته في طلب العلم وعنى بالعلوم الدينية عموما والعلوم المساعدة لها كالنحو واللغة و الأدب والشعر واطلع على بعض الكتب الفلسفية (٢٣) .

٤ – الذهبي ورفاقه في طلب العلم :

تجدر الإشارة هنا وأنا أتحدث عن الذهبي رحمه الله أن أشير إلى أهم العلماء الذين اتصل بهم صلة وثيقة وكانوا ثلاثة من شيوخ ذلك العصر : وهم ((جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن عبد الرحمن المزي الشافعي (٢٤) ت ٧٤٢هـ ، تقي الدين أبو العباس أحمد

بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني (٢٥) ت٧٢٨هـ ، علم الدين أبو محمد القاسم بن محمد البرزالي (٢٦) ت٧٣٩هـ)).

فقد ترافق الذهبي مع هؤلاء العلماء وزاملهم طيلة حياتهم وكان أصغرهم سنا ، بينما كان أبو الحجاج المزي أكبرهم ، وكان بعضهم يقرأ على بعض ، فهم شيوخ وأقران في الوقت نفسه (٢٧) – رحمة الله عليهم جميعا .

وأرى هنا – والله أعلم – أن التكوين الفكري العام للإمام الذهبي قد أرتبط ارتباطا شديدا بالحديث والمحدثين ، وقد أثر ذلك في منهجه التاريخي تأثيرا واضحا حينما ربطه بالحديث النبوي الشريف وعلومه ، فاهتم الذهبي رحمه الله اهتماما كبيرا بالتراجم حتى صارت أساس كتبه ومحور تفكيره ، ثم أثر تكوينه الفكري هذا في نظرته إلى الأحداث التاريخية وأسس انتقائها ونوعية اهتماماته (٢٨) .

٥ – الذهبي وعلم التاريخ :

اجتهد الذهبي في اختصاره لكثير من الكتب العلمية خاصة في العلوم التي أتقنها وبرع فيها ومنها على سبيل المثال لا الحصر بعض الكتب في علم الحديث مثل : (السنن الكبرى) للبيهقي ت ٤٥٨هـ ، (تلخيص العلل المتناهية في الأحاديث الواهية) لابن الجوزي ت ٥٩٧هـ ، و (المستدرك على الصحيحين) للنيسابوري ت ٤٠٥هـ .

ومما اختصر الذهبي من كتب الرجال والتراجم (أسد الغابة في معرفة الصحابة) لابن الأثير الجزري ت ٦٣٠هـ ، و (معجم شيوخ الأئمة النبل) لابن عساكر ت ٥٧١هـ و (الكنى) للحاكم ت ٣٧٨هـ حيث اختصره ونظمه وأعاد ترتيبه (٢٩) .

ونظراً للصلة الوثيقة بين علم الرجال والحديث النبوي الشريف فقد ظهرت شهرة الذهبي فكانت الغاية من العناية بالرجال تأتي لضبط الرواة أولا ، وهذا مفهوم ساد عند المحدثين المؤرخين لا سيما في ذلك العصر ، وقد ترك الذهبي في هذا العلم عدداً ضخماً

من الآثار بدأها باختصار أمهات الكتب المؤلفة في التاريخ مثل (تاريخ بغداد) للخطيب البغدادي ت ٤٦٣هـ (وتاريخ دمشق) لابن عساكر ت ٥٧١هـ ، (وتاريخ مصر) لابن يونس ت ٣٤٧هـ ، (وتاريخ نيسابور) للحاكم النيسابوري ت ٤٠٥هـ ، (وتاريخ خوارزم) لابن أرسلان الخوارزمي ت ٥٦٨هـ .

و إضافة إلى تلك الكتب اختصر الذهبي بعض المؤلفات العلمية في الوفيات ؛ ومنها : (التكملة لوفيات النقلة) ، لابن المنذري ت ٦٥٦هـ ، ومن كتب الأنساب : كتاب (الأنساب) للسمعاني ت ٥٦٢هـ ، وقد كانت هذه المختصرات العلمية المتنوعة هي المادة الرئيسة التي كونت شخصية الذهبي العلمية ، وزادت من معرفته بالعصور السابقة (٣٠) .

وبدأ الذهبي بعد إنجازه لهذه المختصرات العلمية بتدوين تراجم المعاصرين في زمنه ؛ حيث يعد الذهبي من أحسن الذين كتبوا فيهم ،وقد أدرك أهمية هذا الأمر فكان كتابه (المعجم المختص بالمحدثين) خير دليل على ذلك ؛ لأن هذا هو التاريخ الأكثر أهمية ، فهو الذي يعطى المؤرخ أهميته ومكانته بين المؤرخين في عصره ويميزه عنهم .

وأرى والله أعلم أن الذهبي رحمه الله لم يرد الاكتفاء بالروايات والأخذ عن الآخرين بل اعتمد على خبرته ومعرفته الشخصية فهو بهذا العمل جمع و دون أخبار وأحوال رجال عصره من العلماء خاصة بعد استفادته من مناهج السابقين له في هذا العلم ممن اختصر كتبهم وكانت خطوة بعد ذلك لإنجاز كتب عظيمة
في مجال التاريخ الإسلامي كتبها الذهبي بنفسه وبطريقة فريدة مميزة .

إن معرفة الذهبي الواسعة بعلم الرجال أنتجت مؤلفات علمية كثيرة ، جمع في هذه الكتب بين التاريخ وعلم الرجال وظهرت براعة الذهبي في علم التاريخ من خلا اختصاره لعدد من المؤلفات التاريخية مثل :(تاريخ أبي شامة)

ت ٦٦٥هـ ، و (تاريخ أبي الفداء) ت ٧٣٢هـ ، واستفاد من معظم التواريخ المشهورة في عصره ودرسها ؛ مثل : (سيرة ابن إسحاق) ت ١٥١هـ ، و(تاريخ الطبري) ت ٣١٠هـ ، و(تاريخ ابن الأثير) ت٦٣٠هـ ، و(تاريخ ابن الجوزي) ت ٥٩٧هـ ، ويتضح من نطاق مؤلفات الذهبي أنه كان مؤرخا جوال الذهينة ، استطاع استيعاب عصور التاريخ الإسلامي حتى عصره الذي كتب مؤلفاته ، وهي فترة زمنية تزيد على السبعة قرون ، فألف في كل هذه العصور بعد أن دراسة عميقة قامت على ركيزتين رئيستين ؛ هما :

١- الرواية الشفوية .

٢- المؤلفات والكتب العلمية .

وهذا أمر لم يتأت لكثير من العلماء الذين سبقوه أو عاصروه (٣١) .

ونجد في مؤلفات الذهبي التاريخية إشارة إلى الأحوال السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية ، ومع اختصاره للعبارة إلا أنها تدل على سعة أفقه التاريخي وقدرته الفائقة على تصوير حقبة كاملة من الزمن ، وعلى امتداد العالم الإسلامي المترامي الأطراف بعبارة وجيزة ، وهذا أمر لا يتأتى إلا لمن استوعب العصر ودرسه دراسة عميقة ينتج عنه مثل هذا التصوير والفهم العام (٣٢) .

ويتضح عند قراءة كتب الذهبي أمثلة عديدة تدل على قوته في البحث والاستدلال ومناقشة أراء غيره بأسلوب علمي يعتمد على الدليل والإقناع وصار على هذا المنهج في الكتب التي اختصرها أو رد فيها على غيره من العلماء سواء في كتب الحديث أو الفقه أو العقائد أو علم الرجال أو التاريخ ، وقد كتبا تلك المؤلفات بلغة جيدة قياسا بالعصر الذي عاش فيه ؛ فهو باعتباره محدثا كبيرا وناقد ماهر ، دقيق في تعابيره لما لذلك من أهمية

في وضع الكلمة المناسبة أو العبارة في موضعها الملائم لا سيما في تحبير التراجم ، فضلا عن أسلوبه السلس الممتع لمن أدمن قراءة مثل هذه الكتب بالإضافة إلى ذلك كتابته لتلك المؤلفات بخط متقن ، وقد وصل إلينا الكثير من كتبه وكتب غيره مكتوبا بخطه الذي امتاز بالدقة والإتقان (٣٣) .

٦ – أهم مصنفات الذهبي :

ترك الحافظ الذهبي رحمه الله مؤلفات عديدة قاربت مائتين وأربعة عشر عنواناً ، شملت علوم القراءات والحديث ورجاله ومصطلح الحديث وآدابه ، وعلوم العقيدة و الفقه وأصوله والتفسير ، والزهد والرقائق وغيرها .

وفيما يلي أشير إلى أهم مصنفاته في التاريخ والسير والتراجم :

أ- (أخبار السد) وفيه تناول الذهبي أخبار السد الذي بناه ذو القرنين وورد ذكره في القرآن الكريم في قوله تعالى : { قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا } (٣٤) .

ب – (أخبار قضاة دمشق) .

ج – (أسماء من عاش ثمانين سنة بعد شيخ أو بعد تاريخ سماع) وقد ألفه الذهبي سنة ٧١٧هـ .

د – (الإشارة إلى وفيات الأعيان والمنتقى من تاريخ الإسلام) وفي هذا الكتاب تناول الحافظ الذهبي وفيات المشهورين من السنة الأولى للهجرة حتى سنة ٧٠٠ هـ واعتمد فيه على تاريخ الإسلام .

هـ – (الإعلام بوفيات الأعلام) وهذا مختصر لكتابه الإشارة السابق أو لعله ذيل له حيث كان الذهبي يزيد في كتابه كلما تقدمت السنون وقد أشار في أول الكتاب لتواريخ بعض الغزوات والفتوح المشهورة مثل : بدر ، وأحد ، والخندق ، وتبوك ، واليمامة ، واليرموك ، والقادسية ... وغيرها (٣٥) .

و – ٣ (الأمصار ذوات الآثار) وفي هذا المصنف أورد الذهبي أشهر الأمصار ومن نسب إليها من العلماء أو عاش فيها مع بيان لأخبار تلك الأمصار على مدى العصور ، وبدى

بالمدينة المنورة ثم مكة المكرمة ثم بيت القدس ، ودمشق ومصر والإسكندرية وبغداد وحمص والكوفة وغيرها.

ز – (أهل المائة فصاعداً) وتناول الذهبي في هذا الكتاب من عاش أكثر من مائة سنة .

ح – (البيان عن اسم ابن فلان) ويبدو أن موضوع الكتاب في الرجال المشهورين بابن فلان حيث أورد الذهبي ذلك وبين أسماهم الصريحة (٣٦).

ط – (تذكرة الحفاظ) وأشار الذهبي في هذا الكتاب إلى ما يقارب (١١٧٦) ترجمة رتبها على الطبقات فجعله في إحدى وعشرين طبقة ابتدأ فيه بالصحابة وهم الطبقة الأولى وانتهى به إلى زمانه ، ولم يقصد الذهبي استيعاب جميع الحفاظ فقال عن ذالك في ختام حديثه عن الطبقة السابعة . "وهم عدد كثير اقتصرت منهم على الأعلام .." وأحال القارئ إلى مؤلفاته الأخرى لمن رغب في التفاصيل (٣٧) .

ي – (تاريخ الإسلام) وتناول الذهبي في كتابه الحوادث التاريخية والتراجم من السنة الأولى للهجرة حتى سنة ٧٠٠هـ ، ووضع الحافظ الذهبي خطة عامة للكتاب قسمه بموجبها إلى وحدات زمنية مدة كل وحدة منها عشر سنوات ، أطلق عليها لفظ الطبقة (٣٨) .

وقد اتبع الذهبي رحمه الله منهجا تنظيميا يخفف فيه كثيرا من عدد الذين لم يستطيع التثبت من تواريخ وفياهم ويزيل كثيرا من الإرباك الذي يتأتى من كثرة المذكورين في آخر الطبقة وذلك بمثل عبارة (ولم تضبط وفاته

وإنما حدث في هذا السنة) أو عبارة (وحدث في هذا العام ولعله مات فيه..) أو عبارة (.. توفي في حدود هذه السنة ..) أو عبارة (.. وكان حيا في هذه السنة ..) .

واستعمل هذه العبارات أيضا عند إشارته لبعض الحوادث التاريخية التي لم يستطع التثبت من تواريخ حدوثها .

ويلاحظ على الإمام الذهبي في هذا الكتاب قلة المادة التاريخية التي قدمها في الحوادث قياساً بالمادة الضخمة التي احتوت عليها التراجم ، وهذا المنهج هو المعتمد عند المؤرخين

المحدثين ، الاهتمام بالتراجم على حساب المادة التاريخية وذلك منذ القرن السادس الهجري (٣٩) .

ولما كان الذهبي رحمه الله ملتزماً في تاريخه بذكر الحوادث بالتنظيم على السنين فإنه كان يقطع الخبر ليكمله في سنة أخرى بعدها وهي الطريقة التي سار عليها معظم مؤلفي الكتب التاريخية المرتبة على السنين فإذا ما أراد القارئ أن يطلع على حادثة معينة استمرت لعدد من السنين فإن عليه أن يقرأ جميع حوادث السنين ويمر بأخبار وحوادث لا علاقة لها بموضوعه فضلا عما تسببه هذه الطريقة من إرباك في تتبع الخبر التاريخي .

ونجد اهتمام الذهبي رحمه الله في هذا الكتاب بالأمور المتعلقة بمصالح المسلمين الدينية فاعتنى مثلا بذكر مواسم الحج وما يجري للحجاج في المواسم ، واعتنى بمصالحهم الدنيوية وما يصيب الأمة من أوبئة ومجاعات وفيضانات وعواصف مدمرة ، وارتفاع الأسعار ، واهتم بالعلم ونشره ، فقد اعتنى بذكر إنشاء دور العلم مثل المدارس ودور الحديث وخزائن الكتب وتعيين المدرسين وعزلهم مما يدل على شدة اهتمامه بها وعنايته بذكرها .

ك – (دول الإسلام) ويسمى في بعض الأحيان (التاريخ الصغير) ، وقد اعتمد فيه على كتابه (تاريخ الإسلام) وصل إلى سنة ٧٠٠هـ ، ثم ذيل عليه إلى سنة ٧٤٠هـ ، وممن ذيل على (دول الإسلام) الحافظ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي ت ٩٠٢هـ ، ابتدأه من سنة ٧٤١هـ ووصل به إلى سنة ٧٩٥هـ ، وسماه (وجيز الكلام في ذيل دول الإسلام)(٤٠) .

ل – (سير أعلام النبلاء) وقد رتبه الذهبي رحمه الله على الطبقات فجعله من بداية الإسلام حتى سنة ٧٠٠هـ ، كتبه في ثلاثة عشر مجلداً ضخماً ثم ذيل عليه بالمجلد الرابع عشر يتناول الأحداث من سنة ٧٠٠هـ إلى سنة ٧٤٠هـ .

وقد أفرد المجلدين الأول والثاني للسيرة النبوية الشريفة والخلفاء الراشدين ، وبدأ المجلد الثالث بالعشرة المبشرين بالجنة ثم كبار الصحابة فالتابعين ، وهذا الكتاب ليس مجرد

اختصار لتاريخ الإسلام ، فقد ضمنه الذهبي كثيراً من الروايات الجديدة التي لم يوردها في (تاريخ الإسلام) وتوسع في بعض التراجم دون إضافة تراجم جديدة إليه (٤١) .

م – (العبر في خبر من غبر) ويعرف هذا الكتاب بالتاريخ الأوسط ، وقد لخصه الذهبي من كتابه (تاريخ الإسلام) في سنة ٧٥١هـ ، ومع ذلك توجد فيه أحياناً من الحوادث والوفيات ما ليس مذكوراً في تاريخ الإسلام ، ولعل الحافظ الذهبي استدرك بعض الاستدراكات على (تاريخ الإسلام) ، وقد حظي هذا الكتاب بمكانة بارزة بين مؤلفات الذهبي واختصره واستفاد منه كل من ابن العماد ت ١٠٨٩هـ ، وابن قاضي شهبة الأسدى ت ٨٥١هـ ، وذيل عليه تلميذ الذهبي أبو المحاسن محمد بن علي الدمشقي ت ٧٦٥هـ ، وذيل عليه أيضاً أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي ت ٨٠٦هـ (٤٢) .

ن – (ميزان الاعتدال في نقد الرجال) وهذا الكتاب من أحسن كتب الذهبي وأجلها وأجمعها وأكثرها استيعاباً في النقد ، قال عنه مؤلفه : " فهذا كتاب جليل مبسوط في إيضاح نقلة العلم النبوي وحملة الآثار ، ألفته بعد المغني ، وطولت العبارة ، وفيه أسماء عدة من الرواة زائداً على من المغني " .

ونظرا لأهمية هذا الكتاب في علم الجرح والتعديل فقد تناوله جملة من الحفاظ والعلماء المهتمين بنقد الرجال استدراكاً وتعقيباً وتلخيصاً (٤٣) .

٧ – سير وتراجم مفردة :

أفرد الحافظ الذهبي رحمه الله سيراً خاصة لمجموعة كبيرة من الأعيان من كبار الصحابة والتابعين والعلماء وغيرهم ، وقد أشار الذهبي إلى ذلك في أثناء حديثه عنهم ، وأشارت المصادر التاريخية إلى بعض هذه المصنفات إما في مجلدات كبيرة مستقلة أو أجزاء صغيرة خاصة بكل واحد منهم ؛ ومنها على سبيل المثال :

(هالة البدر في عدد أهل بدر) ، (أخبار أم المؤمنين عائشة رضي الله عنه) ، (التبيان في مناقب عثمان رضي الله عنه) ، (توقيف أهل التوفيق على مناقب الصديق) ، (نعم السمر

في سيرة عمر رضي الله عنه) ، (فتح المطالب في مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه) ، (سيرة عمر بن عبد العزيز) ، (سيرة عبد الله بن المبارك) ، (سيرة سعيد بن المسيب) ، (مناقب مالك بن أنس) ، (مناقب البخاري) ، (مناقب أبي حنيفة) ، (مناقب أحمد بن حنبل) ، (مناقب الشافعي) (٤٤) .

٨ – مختصرات ومنتخبات :

اختصر الحافظ الذهبي رحمه الله وانتقى وانتخب عدداً كبيراً من المؤلفات العلمية ، شملت العديد من العلوم الإسلامية مثل علم العقيدة ، وعلم الحديث ، والفقه وأصول الفقه ، والحديث ومصطلح الحديث ورجال الحديث النبوي الشريف ، وفي اللغة والنحو والأنساب ، والزهد والرقائق ، والسيرة النبوية والتاريخ .

ومنها على سبيل المثال في علم السيرة والتاريخ والتراجم ما يلي :

١ – صنف الإمام الذهبي كتابه (بلبل الروض) اختصاراً لكتاب (الروض الأنف) لعبد الرحمن بن عبد الله السهيلي ت ٥٨١هـ .

٢ – وصنف الحافظ الذهبي كتابه (تجريد أسماء الصحابة) اختصاراً لكتاب (أسد الغابة في معرفة الصحابة) لابن الأثير الجزري ت ٦٣٠هـ .

٣ – وهذب الحافظ الذهبي كتاب التاريخ لعلم الدين القاسم البرزالي ت ٧٣٩هـ وأضاف إلى محتويات هذا الكتاب أشياء مما توفر لديه من معلومات .

٤ – واختصر أيضا كتاب (تاريخ مصر) لعبد الرحمن بن أحمد الصدفي ت ٣٤٧هـ .

٥ – واختصر كتاب (الروضتين في تاريخ الدولتين) لعبد الرحمن الدمشقي المعروف بأبي شامة ت ٦٦٥هـ .

٦ – واختصر كتاب (وفيات الأعيان) لأحمد بن محمد بن خلكان ت ٦٨٠هـ (٤٥) .

وعلى هذا النهج سار الحافظ الذهبي رحمه الله طيلة حياته في جهوده العلمية المباركة في التأليف والكتابة ، فوقته لا يخلو من تصنيف كتب علمية جديدة أو ينتقى أو ينتخب أو يختصر أو يذيل بأسلوب مميز وفريد لمؤلفات العلماء لخدمة العلوم الإسلامية باختلاف فنونها وتنوع أساليب البحث والتدوين من علم لآخر فجزاء الله خير الجزاء .

الهوامش

(١) آية ١١١ سورة يوسف .

(٢) آية ٩ سورة الروم .

(٣) محمد صالح السلمي منهج كتابة التاريخ الإسلامي ط ١ ، ١٤٠٦هـ ، دار طيبة للنشر والتوزيع الرياض – السعودية .

(٤) شاكر مصطفى التاريخ العربي والمؤرخون ط ١ ، ١٩٧٩م ، دار العلم للملايين ، بيروت – لبنان ص ٥٩ ، ٦٠ .

(٥) ديار بكر بلاد كبيرة واسعة تنسب إلى بكر بن وائل ياقوت الحموي ، معجم البلدان ج٢ ص٤٩٤ ، طبعة عام ١٣٩٣هـ دار إحياء التراث العربي بيروت .

(٦) بشار عواد معروف الذهبي ومنهجه في كتابه تاريخ الإسلام ط ١ ، ١٩٨٦م ، مطبعة عيسى البابي القاهرة ، ص ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١.

(١٢،١١،١٠،٩،٨،٧) المرجع السابق ص ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ .

(١٣) أحمد بن محمد بن الظاهري ت ٦٩٦هـ ، أبو العباس ، من حفاظ الحديث ولد ونشأ في حلب ، وكان ثقة ؛ كتب عن قرابة ٧٠٠ شيخ ، وله مؤلفات . خير الدين الزر كلي الأعلام ج١ ص٢٢١ .

(١٤) أحمد بن إسحاق الأبرقوهي ت ٧٠١هـ ، شهاب الدين أبو المعالي ، عالم بالحديث والقراءات ، من أهل أصبهان ، عاش في مصر وتوفي بمكة ، كان مسند وقته ، خير الدين الزر كلي ، الأعلام ج١ ص٩٦ .

(١٥) محمد بن علي بن دقيق العيد ت ٧٠٢هـ ، أبو الفتح ، من أكابر العلماء بالأصول ولي القضاء بالديار المصرية حتى وفاته ، له تصانيف كثيرة في الفقه والأصول ، خير الدين الزر كلي ، الأعلام ج٦ ص٢٨٣ .

(١٦) عبد المؤمن بن خلف الدمياطي ت ٧٠٥هـ شرف الدين ، من أكابر الشافعية ، حافظ للحديث له عدة مؤلفات ، خير الدين الزر كلي ، الأعلام ج٤ ص١٦٩ .

(١٧) بشار عواد ، المرجع السابق ص٩٠ ، وانظر للفائدة : ابن حجر العسقلاني ، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ج٣ ص٤٢٧ .

(١٨) المرجع السابق ص٩٤/٩٥ .

(١٩) عرفت دار الحديث بهذا الاسم إشارة إلى واقفها السلطان المملوكي الصالح إسماعيل بن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر .

(٢٠) عرفت هذه الدار بهذه الاسم إشارة إلى السلطان الظاهر بيبرس .

(٢١) بشار عواد معروف ، المرجع السابق ص١٠٦ - ١٠٩ .

(٢٢) محمد بن إبراهيم بن النحاس ت ٦٩٨هـ ، بهاء الدين الحلبي شيخ العربية بالديار المصرية ، ولد في حلب وسكن في القاهرة ، خير الدين الزر كلي ، الأعلام ج٥ ص٢٩٧ .

(٢٣) بشار عواد ، المرجع السابق ص٩٨ .

(٢٤) جمال الدين يوسف بن عبد الرحمن المزي ت ٧٤٢هـ الحافظ محدث الديار الشامية في عصره ، مهر في اللغة ثم في الحديث ومعرفة رجاله له مؤلفات في الحديث منها : تهذيب الكمال في أسماء الرجال ، الزر كلي ، الأعلام ج٨ ص٢٣٦ .

(٢٥) أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية ت ٧٢٨هـ ، شيخ الإسلام ولد بحران أفتى ودرس وهو العشرين برع في التفسير والأصول وغيرها ، خير الدين الزر كلي ، الأعلام ج١ ص١٤٤ .

(٢٦) القاسم بن محمد البرزالي ت ٧٣٩هـ علم الدين ، محدث ومؤرخ أصله من اشبيلية ولد بدمشق ، صنف في الحديث والتاريخ ، كان فاضلا في علمه وأخلاقه ، خير الدين الزر كلي ، الأعلام ج٥ ص١٨٢ .

(٢٧) بشار عواد ، المرجع السابق ص٩٩ .

(٢٨) المرجع السابق ص١٠٥ ، ومحمد إبراهيم الشيباني المرجع السابق ص٢٤ .

(٢٩،٣٠،٣١،٣٢،٣٣) المرجع السابق ص١١٢، ١١٥ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٣١ ، ١٣٢ .

(٣٤) آية ٩٤ سورة الكهف .

(٣٥) بشار عواد ، المرجع السابق ص١٥٦ ، ١٥٧ .

(٣٦) المرجع السابق ص١٥٨ .

(٣٧) المرجع السابق ص١٦٢ .

(٣٨) يتحدد مفهوم الطبقة عند الحافظ الذهبي في جميع كتبه باللقيا بين المشايخ و التعاصر بين مجموعة من الناس ، بشار عواد ص٢٨٢ .

(٣٩) بشار عواد المرجع السابق ص٢٧٩ ، ٢٩٧ ، ٣٠٣ .

(٤٠) المرجع السابق ص٣٠٩ ، ٣٤١ ، ١٦٦ ، وانظر كتاب التاريخ والمؤرخين العرب ، عبد العزيز سالم ص٩٠ ، ٩١ .

(٤١،٤٢،٤٣،٤٤،٤٥) المرجع السابق ص١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٩٣ ، ١٩٩ ، ٢٠٥ ، ٢١٥ ، ٢٢٥ ، ٢٥٠ ،.

المصادر والمراجع :

١- القران الكريم .
٢- بشار عواد معروف ، الذهبي ومنهجه في كتابه تاريخ الإسلام ، ط١ ، ١٩٨٦ م ، مطبعة عيسى البابي ، القاهرة .
٣- خير الدين الزر كلي ، الأعلام ط ٦ ، ١٩٨٤ م ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان .
٤- شاكر مصطفى ، التاريخ العربي والمؤرخون ط ١ ، ١٩٧٩م ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان .
٥- محمد صالح السلمي ، منهج كتابة التاريخ الإسلامي ط ١ ، ١٤٠٦هـ ، دار طيبة للنشر والتوزيع الرياض ، السعودية .
٦- ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ط ١٣٩٣هـ ، دار إحياء التراث العربي بيروت ، لبنان .